صدى مقتل الحسين

في التاريخ الإسلامي والأدب العربي

للأستاذ ضياء الدخيلي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

ولما كان يوم عاشوراء من سنة ٥١٦ هـ جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على باب (الباذهنج) في القصر وكان ذلك بعد قتل الأفضل وعود الأسطة إلى القصر — على كرسي جريد بثير غدة مثلما هو وجميع حاشيته ، فسلم عليه الوزير المأمون وجميع الأمراء الكبار والصغار بالقرامز (ويقول البعض هي على ما يظهر ثياب خاصة ملونة بالقرمز) وإذن للقاضي والداعي والإشراف والأمراء بالسلام عليه وهم بثير مناديل ملثمون حفاة ، وعبيء البساط في غير موضعه المعتاد وجميع ما عليه خبز الشعير والحواضر على ما كان في الأيام الأفضلية وتقدم إلى والي مصر والقاهرة بأن لا يمكنا أحداً من جمع ولا قراءة مصرع الحسين وخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم .

قال وفي ليلة عاشوراء من سنة ٥٢٧ اعتمد الأجل الوزير المأمون على السنة الأفضلية من المضي إلى تربة (تبر) أمير الجيوش وحضور جميع المتصدرين والوعاظ وقراء القرآن والمكث إلى آخر الليل والعودة إلى داره ، واعتمد في صبيحة الليلة المذكورة مثل ذلك وجلس الخليفة على الأرض مثلما يرى به الحزن وحضر في شرف بالسلام عليه والجلوس على البساط بما جرت به العادة .

هذا ما كان يحدث من احتفالات في ذكرى مصرع سيدنا الحسين (ع) قبل أن يشاد الضريح الحسيني حيث دفن فيه رأس الإمام الشهيد منقولا من عسقلان . أما بعد ذلك فقد تحدث ابن الطوير عما كان يصنع في عاشوراء فقال : إذا كان اليوم العاشر من المحرم احتجب الخليفة عن الناس ، فاذا علا النهار ركب قاضي القضاة والشهود وقد فيروا زيهم ليكونوا كما هم عليه اليوم (في عهد الناقل ابن الطوير) ثم ساروا إلى المشهد الحسيني وكان قبل ذلك يعمل في الجامع الأزهر ، فاذا جلسوا فيه ومن معهم من قراء الحضرة والمتصدرين في الجوامع جاء الوزير فجلس صدراً والقاضي والداعي على جانبيه والقراء يقرءون توبة بنوبة وينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة شعراً يرثون به أهل البيت عليهم السلام ؛ فان كان الوزير راضياً تناولوا ، وإن كان سنياً اقتصدوا . ولا يزالون كذلك إلى أن تمضي ثلاث ساعات فيستدعون إلى القصر بنقباء الرسائل فيركب الوزير وهو بتنديل صغير إلى داره ويدخل قاضي القضاة والداعي ومن معهما إلى باب الذهب فيجدون الدهاليز قد فرشت مساطبها بالحصر بدل البسط وينصب في الأماكن الخالية من المصاطب دكك لتلحق بالمصاطب لتفرش ، ويجدون صاحب الباب جالساً هناك فيجلس القاضي والداعي إلى جانبه والناس على اختلاف طبقاتهم فيقرأ القراء وينشد المنشدون أيضاً ثم يفرش عليها بساط الحزن وفيه مقدار ألف زبدية من العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان الساذجة وأعسال النحل والفطير المفير لونه بالقصد فاذا قرب الظهر وقف صاحب الباب وصاحب المائدة وأدخل الناس للاكل منه فيدخل القاضي والداعي ويجلس صاحب الباب نيابة عن الوزير والمذكوران إلى جانبه وفي الناس من لا يدخل ولا يلزم أحد بذلك فاذا فرغ القوم انفصلوا إلى أماكنهم ركباناً بذلك الزي الذي ظهروا فيه وطاف النواح بالقاهرة ذلك اليوم وأغلق البياعون حوانيتهم إلى جواز العصر فيفتح الناس بعد ذلك ويتصرفون .

أما الدولة الأيوبية فقد اتخذت يوم عاشوراء عيداً ومن أيام الأفراح لإرغام آناف الشيعة وإيلامهم .

هذا هو أثر فاجعة كربلاء في التاريخ الإسلامي .

أما في الأدب العربي فقد أوجدت فيه ناحية قاتمة يملؤ فيها الصراخ والعويل وتتردد في جوانبها الثورة على الظلم القبيح وامتداح الإباء وشرف النفس والتمنع من دنايا الأمور . كان هذا القسم من الأدب العربي طافحاً بتصوير مآسي كربلاء بخطوط واضحة سوداء واجتهد في أن يبرز كل جانب من جوانبها مؤلماً يهطل بالدموع ويثير الآهات والحسرات خاصة بعد أن كان ترديد فاجعة كربلاء على الجماهير مهنة تدر الربح الوفير كما كان حال النواح والمنشدين في العصر الفاطمي بمصر كما تقدم على ما نقل المقريزي في الخطط وكما هو الشأن اليوم في العراق وإيران والهند وجبل عامل وغيرها من الأصقاع الشيعية ، ويدعى هؤلاء (خطباء المنبر الحسيني) ويسمون في اللغة الفارسية (روزه خون) وهي تحريف (روضه خون) أي قارئ الروضة أي روضة الإمام الشهيد يعني قبره الكريم .